العراق الجديد لا حرمة فيه للاموال والاعراض والانفس

نصيف الجبوري*

■ العراق اليوم ومنذ الاحتلال حتى هذه اللحظة يسير من سيىء الى اسوأ ليظل المرء حائرا لشعب كالشعب العراقي كيف يمكنه ان يصمد ويصبر ويبقى متماسكا حتى الان رغم استباحته من قبل قوات الغزو الامريكية واذنابها. عندما يتساءل المرء مع العراقيين في الشارع حول افق المستقبل «هل هناك امكانية للخروج من المأزق الذي يزداد حدة وقسوة؟» يأتي الجواب العفوي وهو ان من لا يأمن على ماله وعرضه ونفسه كيف يمكنه ان يفكر او يتنبأ عم سيحدث غدا او بعد غد لانه لا يعلم مصيره اذا ما خرج صباحا هل سيعود بالمساء الى بيته سالما معافى.

العراق الجديد الذي نراه اليوم لا يدري احد متى سيكون المخرج والفرج، فالعملية السياسية ولدت ميتة، رغم تبجح المحتل واعوانه، واوصلت البلاد والعباد الى الهاوية ولا يأمل احد من العراقيين منها اي خير. والدخول في طلاسم السياسة الامريكية في العراق كالذي يبحث عن ابرة سقطت في عمق البحر.

فشل العملية السياسية القت بظلالها على حياة المواطن ومعاناته في حركته او عمله او راحته. لا بد اذن من تسليط الاضواء على المواطن العادي الذي لا يعيش في المنطقة الخضراء ولا يمتلك حراسا لحمايته او سيارة مصفحة تحميه او قوات امريكية بمعيته او حتى قوات الحرس الوطني. ذلك المواطن الذي يقطع الطريق احيانا بين ساحة النهضة وعلاوي الحلة باكثر من ساعتين او يسافر من بغداد الى المحمودية التي لا تبعد عن بغداد سوى ثلاثين كيلومترا ليتوقف على اكثر من سبع نقاط تفتيش. او يذهب الى بعقوبة ليرى ان الطرق مغلقة ويتوجب عليه ان يعود الى ادراجه.

ان حياة 26 مليون عراقي في العراق الجديد باتت في معاناة متعددة الوجوه ننقل صورا منها ليرى القارىء اي عراق يراد بناؤه واي مصير ينتظر ابناءه.

1. قوات الغزو الامريكي:

من المثير للسخرية ان يتحدث البعض بالقول ان العراق استعاد سيادته في حين تثبت الاحداث على الارض وفي السماء العراقية عكس ذلك تماما فعندما وصلت من سورية الى الحدود العراقية كانت القوات الامريكية هي التي تسمح وتمنع دخول العراقيين وليس للحرس اي دور سوى الترجمة، وتسهيل خدمات الامريكي المحتل، فقد رأينا، بعد ان انتظرنا على الحدود اكثر من ثماني ساعات في منطقة صحراوية لا يوجد فيها حتى مرحاض، الكثير من الشباب العراقي قد اجبر على النزول من السيارات ومنع من دخول وطنه ليبقى في العراء اي في المنطقة العازلة الى ما يشاء الله لان سورية هي الاخرى لا تسمح له بالعودة مرة اخرى الى اراضيها.

لقد ظهر بعد انتظارنا لاكثر من ثماني ساعات بان هدف القوات الامريكية والحرس الوطني العراقي هو اذلال العراقيين لا غير لاننا عندما عبرنا نقطة التفتيش لم تفتش السيارة على الاطلاق لا الكترونيا ولا يدويا والمفارقة المحزنة وبعد دخولنا وجدنا لافتة كتب عليها «مرحبا بكم في العراق ان قوات المارينز جاءت من اجل العراق بطلب من حكومته الشرعية».

تتصرف قوات الاحتلال في العراق وكأنها السيدة المسيطرة وبيدها مفاتيح البلاد بثرواته واهله ففي مدخل مدينة بعقوبة الجنوبي نشاهد وعلى مسافات واسعة بساتين احرقت ودمرت وهدمت لتتساوى على الارض بحجة ان المقاومة الوطنية العراقية قامت بعمليات ضد قوات الاحتلال وكذا الامر في المقدادية وعلى الطريق الجديد الذي يسميه الامريكان «طريق الموت» حيث جرفت اشجار الحمضيات والنخيل.

يعلم العراقيون ان الحاكم الفعلي في العراق هو السفير الامريكي والجميع يخطب وده من رئيس الجمهورية الى رئيس الوزراء الى الحكيم الى الصدر ولا يتمكن احد من هؤلاء ان يعاقب الادارة الامريكية ولو لذر الرماد بالعيون.

الديمقراطية الامريكية في العراق لا تسمح باي انتقاد او عتب فضلا عن معاداة الاحتلال فقبل اسابيع هاجمت القوات الامريكية بمعية الحرس الوطني مقر هيئة علماء المسلمين متهمة اياها بخطف الصحافية الامريكية وقد عاثوا فيها فسادا وكسروا الابواب واقتادوا بعض العلماء بصورة مهينة وسرقوا الاموال والحاسبات الالكترونية.

2. الحرس الوطني:

يفضل الكثير من العراقيين اليوم ان تعتقلهم القوات الامريكية رغم قساوتها وظلمها على الحرس الوطني الذي بيض وجه الاجهزة القمعية في عهد صدام حسين حيث بات يمارس ابشع وسائل التعذيب واعنفها حيث اضطر بعض مسؤولي جبهة التوافق الطلب من المحتل الاجنبي ان يرافق قوات الحرس الوطني اثناء المداهمات.

فالحرس الوطني عندما يداهم البيوت يأتي بروح ثارية وعدوانية وانتقامية فيحطم كل شيء امامه ويسرق الاموال والذهب ويعتقل الشباب دون تصريح رسمي من احد واذا ما هدده اهل المنزل بالاحتكام الى القضاء (ان كان هناك قضاء في عراق اليوم) فانه يتهم بالارهاب او زرع عبوات ناسفة في هذا المكان او ذاك.

ففي بيت احد الاقرباء واثناء مداهمات حصلت في المقدادية حيث اعتقل اكثر من مئة شاب طلب مني صاحب الدار ان اسلمه الاموال التي بحوزتي فعندما سألت عن السبب قال لي بان الحرس اذا ما داهمنا لا يعتقل الشباب ويكسر ما امامه انما يسرق ما يراه من مال او ذهب اي كل ما غلى ثمنه وخف حمله.

لقد اصبح الحرس الوطني يقوم بجرائم يندى لها جبين الانسانية فهو اليوم يبيع المعتقلين الى العصابات المتخصصة بالجريمة المنظمة لقاء الاف الدولارات حسب طبيعة المعتقل وما يملك من اموال. اما بقية المعتقلين فمن الممكن شراء حريتهم لقاء مبلغ يدفع كرشوة للحرس الوطني، بل ان الانتماء الى الحرس الوطني اصبح سعره 1000 دولار بعد ان كان قبل ستة اشهر 500 دولار.

بات الحرس الوطني يقلد الامريكان في كل شيء من الملابس الى النظارات السوداء وليس هناك فرق كبير بينه وبين الارهابي فالاثنان لا يكشفان عن وجههما والقناع يغطي كل شيء، وتطبع الحرس بالطابع الامريكي، فالاثنان يريدان اذلال الشعب العراقي (وظلم ذوي القربى اشد واعنف)، فهم يسيرون بسرعة فائقة ويطلقون الرصاص بالهواء ويوجهون فوهات بنادقهم ضد الشعب العراقي للدفاع عن المحتل الامريكي.

3. التطهير الطائفي:

بالرغم من ان اللحمة الوطنية لا تزال قوية بين الطائفتين المسلمتين السنة والشيعة ولا يمكن باي حال من الاحوال تحميل عموم الشيعة وزر ممارسات التطهير الطائفي للحرس الوطني وقوات بدر وغيرهما. لان وزارة الداخلية اليوم تسير وفق منهجية مدروسة لتطبيق التطهير الطائفي في مناطق متعددة من العراق وتتصاعد كل يوم وتيرة هذه السياسة لتوتير الاجواء وتسميمها وافساد الذمم لاشغال الشعب العراقي عن الاحتلال واثاره المدمرة وتوجيه انظاره الى النزاعات الطائفية التي لم يكن ليعرفها في اسوأ العهود.

هناك الكثير من الضغوطات لترحيل وتهجير عوائل كثيرة من البصرة والكوت والناصرية والعمارة بممارسة الترهيب من قبل الميليشيات والحرس الوطني ولعل بغداد اكبر مثل لما يجري من تلك الممارسات حيث الضغوطات العنيفة على المناطق المتآلفة كالشعلة والحرية والكرادة. وعزل المناطق ذات الاغلبية السنية كالمحمودية واللطيفية والدورة وابو غريب والعامرية ولصق التهم الارهابية بها واعتقال ابنائها في مداهمات ليلية ونهارية حتى تصبح تلك المناطق كالجحيم لا يمكن العيش في كنفها وربما تركها لتوطين من يراد توطينهم من قبل الميليشيات الحاكمة في بغداد، والذي حدث في الشعلة اكبر دليل على ذلك لان هذه المنطقة باتت شيعية 100 % بعد اجبار وترحيل اهلها من السنة الى مناطق اخرى بعد اعتقال او قتل شبابها من قبل ميليشيات وزارة الداخلية. عندما اختطفت اخت وزير الداخلية بيان صولاغ في منطقة القادسية اعتقل في المنطقة المحيطة اكثر من 250 شابا ووضعوا في غياهب السجون كرهائن لدى وزارة الداخلية واعتقلت حتى عائلة الحلاقة على الرغم من انهم صابئة واستغلت هذه الحادثة لعمل تصفيات طائفية في هذه المنطقة الحساسة من بغداد. وبنفس الاتجاه جاء مسلحو وزارة الداخلية واقتادوا قائمقام المحمودية الذي خدم مدينته خير خدمة والمنتخب من اهاليها الى مكان مجهول وذنبه الوحيد انه من الحزب الاسلامي العراقي، ولنفس السبب اغتالت قوات بدر الداعية الاسلامي اياد الفرتي عضو المجلس الوطني في بعقوبة.

اعتقالات ومداهمات بالجملة في الدورة وابو غريب والغزالية والعامرية وابو دشير مما جعل الشباب يهربون من تلك المناطق الى اقاربهم القاطنين في مناطق اكثر امنا وهذه المداهمات في بعض الاحيان تصيب حتى العوائل الشيعية لتنفيذ خطط وزارة الداخلية القاضية الى سياسة العزل الطائفي.

لقد وصلت الاستفزازات الطائفية للحرس والميليشيات حدا لا يطاق حيث الاستهزاء بمشاعر المسلمين الدينية كسب الصحابة وتحويل وزارات ودوائر حكومية الى حسينيات ولطميات ومآتم حسينية واستعيض بالعلم العراقي والمواطنة العراقية بالطائفة والمآتم. لقد اصبحت التعيينات الوظيفية هي الاخرى تتم على اسس طائفية فاسم عمر، وفاروق، وابو بكر، وعائشة، وهند يحرم صاحبه من اول لحظة في ايجاد وظيفة ما. اما الشخص ذو الاسم الحيادي فانه يسأل هل هو سني ام شيعي؟ وبدأت الاستمارات في الكليات والوظائف وغيرها توزع للملأ وفيها ايضا حقل حول مذهب الشخص.

مؤسسات الدولة

الشروخات الطائفية وتصرفات الحرس الوطني والميليشيات تبعها تدمير لمؤسسات الدولة فهناك عمليات منهجية لافراغ البلاد من الكفاءات حيث مورس القتل والخطف وتهديد الكثير من العلماء والاطباء والمهندسين والصحافيين.

لقد تدنى المستوى الدراسي في العراق كثيرا سواء كان ذلك في المدارس او المعاهد او الجامعات حيث الغش والرشوة والمحسوبية والمنسوبية والمحاصصة في قبول الطلاب في هذه الكلية او تلك.

اما مؤسسات وزارة الصحة فهي الاخرى تعاني من الفوضى الادارية فالطبيب لا قيمة له امام الحرس الوطني او احد اعضاء الميليشيات الحاكمة وكيف يمكن ان يؤدي واجبه اذا ما علمنا بان الطبيب الذي له خدمة تتجاوز الخمس سنوات يتقاضى راتبا لا يتجاوز 200 دولار شهريا.

مؤسسات الخدمات هي الاسوأ في العالم اجمع، فالكهرباء لا تأتي الا لساعات قصار واصبحت التجارة لبيع الكهرباء عن طريق المحولات ومولدات الكهرباء امرا شائعا في انحاء العراق والخدمات المائية لم تتمكن حتى الان من اعادة جزء صغير من ترميم المجاري. اما البنزين فازمته مستمرة وفي تصاعد اضافة الى غلاء ثمنه حيث سيصل قريبا الى دولار للتر الواحد دون اكتراث لرواتب الموظفين وغيرهم.

لقد بات العراق ارضا خصبة للارهاب وعصابات القتل المنظم والخطف وبيع الاشخاص الى ذويهم باثمان غالية وفي بعض الاحيان بالتعاون مع الحرس الوطني والميليشيات المتعاونة مع تلك العصابات، بحيث هرب الميسورون والاغنياء من العراق وذوو رؤوس الاموال لانهم معرضون للخطف والقتل ولا يمكن ان يستثمروا في هذا البلد الذي غاب عنه القانون تماما ولا تحكمه سوى شريعة الغاب.

لقد فشل الرهان على المحتل بعد حوالي ثلاث سنوات حيث اعاد العراق الى القرون المظلمة ولا أمل في تحويل العراق الى يابان او المانيا الشرق الاوسط اضافة الى ان الاستقواء والموالاة للاجنبي الظالم مخالف لعقيدة الشعب وممزق لهويته الوطنية.

اخيرا اريد ان اقول بانني لست من التكفيريين ولا من الصداميين ولا من البعثيين ولا من الطائفيين لكنني انشد العدالة بين جميع اطياف الشعب العراقي هذا المبدأ هو الذي جعلني اترك العراق لاصبح معارضا علنيا ضد النظام منذ منتصف عام 1980 وهو الذي جعلني اقف مع ايران الاسلامية واشارك في مؤتمرات المعارضة العراقية التي عقدت فيها عام 1984 وعام 1986، اذ كيف يمكن السكوت على نظام يسفر عوائل عراقية بالاجبار وتحت ظروف قاهرة سواء الى ايران او غيرها وكيف يمكن السكوت على نظام يسفر الاكراد العراقيين من الشمال الى الجنوب ويجهز نفسه بدفع امريكي لحرب ضد ايران؟

كان هناك الاف مؤلفة من اهل السنة قد عارضوا النظام البائد ووقفوا مع اخوانهم الشيعة والاكراد ودفعوا ثمنا غاليا لذلك ولعل اقل ما يتوقعونه اليوم من اخوانهم الشيعة والاكراد هو الوقوف على ارضية مشتركة واحدة وهي مناهضة القوات الاجنبية المحتلة بعد ان علم الجميع بان مشروعها قد فشل واستمرارها في العراق يقربنا يوما بعد يوم الى الحرب الطائفية وعندها لا سمح الله لا يفيد الندم.

المشكلة اليوم هي ليست في مذهب الحاكم او قوميته انما في اصالة مبادئه وحبه للوطن وانقطاعه من الاجنبي المحتل الذي فشل في معالجة ابسط الحقوق الانسانية وهي الامن والامان. وبالنتيجة فان الاحتلال واذنابه لا يمكن ان يكونوا بديلا للنظام الصدامي لان السيد هو السيد سواء كان في العهد الصدامي او في هذا العهد.

* كاتب من العراق يقيم في فرنسا

عن الجدوى من قمة الخرطوم

يحيى اليحياوي*

■ للخرطوم، في الذاكرة العربية (الرسمي منها كما الشعبي سواء بسواء)، رمزية خاصة تطفح للسطح كلما تم الحديث عن القمم العربية أو شد العزم على عقد إحداها:

● فهي المدينة التي استقبلت الزعيم الراحل جمال عبد الناصر بحرارة وعفوية ندر مثيلهما وهو مهان، مهزوم، مكسور الجناح، منحط المعنويات وجزء من بلده أضحى تحت الاحتلال الإسرائيلي المباشر.

● وهي المدينة التي التأمت من بين ظهرانيها قمة عربية اشتهرت (في أعقاب نكسة 1967) برفع لاءاتها الثلاث: لا تفاوض مع إسرائيل ولا صلح معها ولا اعتراف بوجودها.

● وهي التي مهدت لحرب الاستنزاف وفسحت في المجال واسعا لانتصار أكتوبر 1973 وأعادت لعبد الناصر (وهو في قبره) بعضا من الكرامة ولمصر (وللعرب أجمعين عبرها) بعضا من الهيبة والاعتبار.

وإذا كانت قمة الخرطوم 1967 تؤرخ حقا لمرحلة مفصلية إيجابية في سيرورة كانت منذ العام 1945 عادية في أداء الجامعة العربية، فإن ثمة تاريخين مفصليين سلبيين آخرين أثرا على الأداء إياه وحولا إجماع الخرطوم إلى مجرد ذكرى جميلة ليس إلا:

● فزيارة السادات لإسرائيل في العام 1977 لم تطعن قرارات الخرطوم في صميمها، بل أصابت في العمق ميثاقها مقوضة بذلك أدنى درجات التنسيق التي كانت الجامعة إياها مكمنها والآية القائمة من وجودها.

● وشرعنة إخراج العراق من الكويت بالقوة التي ترتبت عن قمة القاهرة بالعام 1990 أشرت بما لا يدع مجالا للشك أو المزايدة العقيمة أن الجامعة قد باتت الحاضن الرسمي لتفرقة العرب في الجوهر حتى وإن قبل بعضهم (بالمظاهر) مجالسة البعض الآخر وهو غريمه أو يضمر له الشر والعداء.

وإذا كان من الثابت حقا أن جامعة الدول العربية لا تعدو، بالبداية وبمحصلة الأمر، سوى كونها سكرتارية رسمية لتنفيذ ما أجمع عليه الرؤساء والملوك العرب (والإجماع ذاته لم يعد عنصر تقييد منذ قمة 1990 المشؤومة)، فإن الثابت أيضا أنها لم تعد (ولن تكون منذ قمة الخرطوم الأولى) مكمن مراهنة كبير للحل والعقد في حاضر العرب ولا في مستقبلهم لدرجة أضحى معها مجرد الالتئام مكسبا في حد ذاته، في حين أن المفروض أن ذات الالتئام هو مدخل ليس إلا لتشريح القضايا العربية المطروحة ومعالجتها بهذه الصيغة أو تلك.

ولئن أضحت «قرارات» القمم العربية وتوصياتها مجرد ردود فعل على قضايا عامة أو محددة، سيما بجانب الصراع مع إسرائيل، فإن ذات القرارات والتوصيات غالبا ما لا تستتبع بإجراءات عملية أو تخضع لعمليات التقييم الدورية لتتقصى العثرات أو تسرع من وتيرة التنفيذ.

وعلى هذا الأساس، فإن القمم إياها إنما طاولها التآكل... والجامعة ذاتها أصابها العطب وتجمدت آلياتها وبدأ العديد من الحكام العرب يتبرمون عنها وعن حضور لقاءاتها... ناهيك عن استهزاء العالم بها وعدم اكتراث إسرائيل بما يصدر عنها وهكذا.

لن تخرج قمة الخرطوم لآذار (مارس) الحالي عن السياق العام الذي حكم مفاصل الجامعة العربية ولا يزال يكون لها العنصر الجوهري الناظم:

● فهي تنعقد «لتبت» في المسألة العراقية المتشابكة الأضلع وهي (أي الجامعة) تعلم علم اليقين (على الأقل باعترافها بحكومة الاحتلال) أن الإشكال يتجاوزها بكثير، وتدري جيدا أن المطلوب منها ليس المطالبة بتحرير العراق، بل مساعدة الاحتلال على الخروج من مستنقعه أو على الأقل التخفيف من معاناته وقبل كل هذا وذاك المساعدة على الالتفاف على المقاومة وتصنيفها ضمن خانة الإرهاب كما تدفع بذلك الولايات المتحدة الأمريكية.

بالتالي، فلن تخرج القمة بهذه النقطة، إلا بتوصيات (أو بـ«قرارات») إنشائية، غامضة وملتوية «تتشبث فيها بوحدة العراق ووحدة أراضيه»... حتى بإدراك المجتمعين (وزراء خارجية وحكام) أن الجامعة إياها هي التي شرعنت لغزو العراق وتواطأ معظم أعضائها (جهارة وفي السر) على ضرب العراق واستباحته واحتلاله.

عن أي مسألة عراقية سيتحدثون وهم يعلمون أن رئيس دولة العراق الشرعي بسجن الاحتلال الأمريكي دونما موجب حق يذكر؟ وعن أي عراق سيتحدثون ودول الجامعة الكبرى (مصر والسعودية تحديدا) كانت منطلق طائرات الغزو وممر بوارجه الحربية؟

● ثم ان القمة تنعقد للتداول في القضية الفلسطينية وهي تعلم جيدا ليس فقط أن تراجع العرب عن لاءات الخرطوم لم يعد كافيا بحد ذاته، بل يدركون تمام الإدراك أن إسرائيل ماضية في خطها دون رجعة سواء رضي العرب (والفلسطينيون) بذلك أم عارضوه؟

وعلى الرغم من التغييب القسري لحكومة حماس المنتخبة (وهي صاحبة الشأن في هذه القضية) والتحايل القانوني من لدن رئيس السلطة الفلسطينية كي لا يتم استدعاؤها، فإن المؤكد أن القمة لن تخرج في بيانها الختامي (وحتى بـ«قراراتها») عن مطالبة الحكومة الجديدة بـ«الالتزام بما تم اعتماده من لدن الشرعية الدولية» من خطط ومبادرات وما سواها... إذا لم تطالبها جهارة بالاعتراف بإسرائيل لتبيان «تمسك العرب بخيار السلام».

عن أي قضية فلسطينية سيتحدثون والحكام العرب عاجزون عن التنديد (حتى التنديد في حده الأدنى) بمجازر إسرائيل أو إيقاف مخططاتها الأحادية أو الحيلولة دون تهويدها المتسارع لمدينة القدس؟

عن أي قضية سيتحدثون وهم (فرادى وجماعات) يطلبون ود إسرائيل ويتفاخرون بعلاقاتهم السياسية والاقتصادية معها؟

● والقمة تعقد «للنظر» في أزمة دارفور وهي تعرف مسبقا أن الأزمة إياها تخترقها مصالح جيوستراتيجية لدول كبرى وتفعل فيها مجموعات تتباين رهاناتها بالشكل كما بالمضمون.

كيف لجامعة، متكلسة تكلس أعضائها ولربما أكثر، أن تحل «المعضلة السودانية» (ودارفور عنصر من المعضلة إياها ليس إلا) وهي تعلم أن سبل الحل مرتهنة بالجملة والتفصيل بالمصالح الخارجية الكبرى وبالتطاحنات الداخلية المتناحرة على الثروة والسلطة والنفوذ؟

● والقمة تتبجح بإدراج علاقة التوتر بين لبنان وسورية ضمن مداولاتها في حين أنها تعلم أن أرقى ما تستطيعه هو «مطالبة الأطراف بتطبيق قرارات الشرعية الدولية» المحيلة حتما على ارتهان لبنان (عبر تقويض سلاح المقاومة) وتضييق الحصار على سورية في أفق تدميرها تماما كما تم بالعراق من ذي قبل.

كيف لجامعة مرتهنة القرار أن تفعل في «ملف» هو من صلب الاستراتيجية الأمريكية لإعادة ترسيم حدود المنطقة برمتها وتقويض سبل الممانعة من بين ظهراني هذا النظام العربي أو ذاك؟

● ثم هي تتحدث في جدول أعمالها عن «قضايا تنموية وثقافية وهيكلية» أي بجانب إعادة هيكلة الجامعة. كيف السبيل إلى إعادة هيكلة بناء مهترئ، كل عناصره تحتضر ولم يعد لوجوده اعتبار يذكر؟

إن الجامعة العربية (تماما كالعديد من التنظيمات الإقليمية والجهوية العربية) إنما أضحت علة على الشعوب تماما كما هي النظم التي تمثلها، واجتماعاتها الدورية لا تخرج عن نطاق تبذير المال العام لشعوب جائعة، معطلة ومقصية من القرار.

لست أدري حقا هل مكابرة الجامعة العربية في عجزها وترهلها هي حالة من حالات ألم الولادة أم تراها حالة من حالات غصة الموت؟

يبدو لي أنها سكرات الموت التي تنتابها فباتت بحاجة ماسة إلى وصفة من وصفات الموت الرحيم.

* كاتب من المغرب

هل تشكل حماس اداة ضغط على الدول العربية؟

أحمد دياب*

■ للإجابة عن هذا التساؤل ربما يفكر البعض فى أن نجاح حماس المدوي في الانتخابات الفلسطينية واحتمالات نجاحها في تشكيل الحكومة المقبلة، قد تجعلها نموذجا يحتذى به لحركات وتنظيمات الإسلام السياسي في العالم العربي، خصوصا أن هذا النجاح تحقق في ظل سلطة احتلال باطشة وسلطة فلسطينية منافسة وبيئة اقليمية ودولية معارضة، إن لم تكن معادية.

نجاح حماس من هذا المنظور قد يشكل بالفعل ضغطا على الدول العربية، أخذا في الاعتبار أن حماس تبدو حديثة العهد والتجربة مقارنة بأخواتها في العالم العربي. وربما يفكر البعض الآخر في احتمال ممارسة الولايات المتحدة واسرائيل لضغوطهما على الدول العربية، مثلما هو حاصل الآن، لدفعها للمشاركة في حصار حماس والضغط عليها عبر قطع المساعدات التي تقدمها للشعب الفلسطيني. وهذا بدوره يعرض الدول العربية لضغوط داخلية في ظل التعاطف الكبير الذي تتمتع به حماس والقضية الفلسطينية في الشارع العربي.

لكن الاجابة عن كيفية تشكيل حماس أداة ضغط على الدول العربية ربما تنصرف الى تصورات وأفكار أخرى، ترى أن صعود، أو بالأحرى «تصعيد» حماس، يبدو عملية مقصودة وفي هذا الوقت بالذات. فنجاح حماس في الانتخابات لم يكن مصادفة أو مفاجأة. وإذا كان هناك ثمة مفاجأة في هذا النجاح، فقد كان للأطراف الفلسطينية، خصوصا حركتي فتح وحماس. فرغم أن الأخيرة كانت تدرك ما تحظى به من تأييد في الشارع الفلسطيني على نحو ما بينت لها نتائج الانتخابات البلدية، إلا أن حماس كانت تدرك أن مسألة فوزها في الانتخابات التشريعية وتشكيل الحكومة الفلسطينية.

هي أمور دونها قتال، وغير مقبولة إسرائيليا وإقليميا ودوليا. أما حركة فتح فقد جاءت خسارتها للانتخابات بمثابة مفاجأة كبرى لها، إذ استنامت الحركة إلى أوهام دورها التاريخي في النضال الفلسطيني، وتركت أعراض الضعف والترهل والفساد وتصارع الأجنحة تضرب بأطنابها داخلها. وفي نفس الوقت راهنت فتح على دعم الأطراف الخارجية المعارضة والرافضة لوصول حماس إلى السلطة.

في المقابل يمكن القول ان نجاح حماس في الانتخابات لم يشكل مفاجأة للجانبين الإسرائيلي والأمريكي، رغم ما يصدر عنهما حاليا من سياسات وممارسات تستهدف حصار حماس والضغط عليها، بل ان هناك من الشواهد والأدلة ما يؤكد أن واشنطن وتل أبيب كانت لديهما المعرفة، بل والرغبة في صعود حماس الى السلطة، أو على الأقل عدم عرقلة هذا الصعود، إذ رفضت الولايات المتحدة طلب الرئيس الفلسطيني محمود عباس تأجيل الانتخابات التشريعية لمدة 6 أشهر بهدف ترتيب الأوضاع داخل حركة فتح، وضغطت على إسرائيل من أجل: (1) عدم منع حركة حماس من المشاركة في العملية الانتخابية. (2) السماح للفلسطينيين في القدس الشرقية بالمشاركة في التصويت في الانتخابات.

الدوافع والأهداف الإسرائيلية والأمريكية من صعود حماس الى السلطة متعددة، تبدأ من يأسهما من فساد السلطة الفلسطينية وعجزها عن ضبط الأوضاع الأمنية، وتنتهي برغبتهما في وضع حماس في «قفص» السلطة والمسؤولية وما يترتب على ذلك من التزامات تجاه إسرائيل: الأعتراف، التخلي عن المقاومة، الموافقة على الاتفاقات التي وقعتها السلطة الفلسطينية بقيادة فتح منذ اتفاق أوسلو عام 1993. هذه المطالب تضع حماس بالفعل امام خيارات صعبة. فالاستجابة تعني أن تتخلى حماس عن برنامجها ومشروعها الوطني بما يجعلها نسخة مكررة من حركة فتح بعد عام 1988، والممانعة تعني تصاعد الضغوط الإسرائيلية والأمريكية، بل والعربية. هذه الضغوط تتباين الأهداف بشأنها، ما بين الرغبة في إفشال حماس وبين الرغبة في تطويعها.

لكن هذه العملية سوف تستغرق وقتا ليس بالقصير، الأمر الذي يتيح لإسرائيل الاستمرار في السياسة الأحادية الجانب والتنصل من أي التزامات أو اتفاقات سبق توقيعها، كما يتيح لها مقاومة الضغوط وتفادي الانتقادات الدولية جراء ممارساتها القمعية تجاه الشعب الفلسطيني، تلك الممارسات المتوقع تصاعدها على أنغام مزايدات حملة الانتخابات الإسرائيلية المقامة في 28 اذار (مارس) الجاري.

هذا الوقت سوف يعفي الولايات المتحدة أيضا من مطالبتها بتقديم مبادرات أو أفكار لاستئناف العملية السلمية، أو حتى مطالبتها بالضغط على إسرائيل لوقف اعتداءاتها على الفلسطينيين. هذا الموقف الأمريكي ليس جديدا، وهو يتجاوز الرغبة في إفشال حماس أو حتى تطويعها، الى الرغبة في الضغط على الدول العربية بشأن عدة قضايا: الموافقة على الاطاحة بالنظامين السوري واللبناني، المشاركة في احتواء إيران وعزلها، ثم، وهو الأهم، الموافقة على إرسال قوات عربية الى العراق، تتيح لواشنطن إمكانية سحب قواتها التي تتعرض لخسائر فادحة، في الأفراد والمعدات. وإذا كانت واشنطن تستطيع الاستغناء عن دعم العرب تجاه المطلبين الأول والثاني، بل وتستطيع تجاهل أي اعتراضات أو تحفظات لهم على سياستها بشأنهما، إلا أن المطلب الثالث تبدو واشنطن في حاجة شديدة لموافقة العرب عليه، رغم وجود مقاومة وممانعة عربية لافتة، سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي. الأمر الذي يقتضي من واشنطن تكثيف ضغوطها واللعب بكافة أوراقها لإجبار العرب على الاستجابة لهذا المطلب في أسرع وقت وبأقل المساومات الممكنة. من هنا تأتي أهمية اشعال «الموقد» الفلسطيني تحت اقدام العرب، فهو الكفيل بتطويع «المقاومين» وتحريك «المتثاقلين» بل وتخفيض السعر في بازار «المساومين»، ذلك أن واشنطن تدرك الموقع الذي تحتله القضية الفلسطينية في السياسات الرسمية للدول العربية، والمكانة التي تحظي بها في عقل ووجدان الشعوب العربية، لاعتبارات قومية ودينية. ولذلك فإن واشنطن لم ولن تتورع عن توظيف هذا الموقع وتلك المكانة في ابتزاز العرب أوالتغرير بهم، عبر اتخاذ مواقف سلبية تارة أو ايجابية تارة أخرى تجاه القضية الفلسطينية. من هنا فإن تعقيدات وإشكاليات وصول حماس الى السلطة والعجز العربي عن مواجهتها، تقدم لواشنطن فرصة مواتية لابتزاز العرب ومساومتهم بشأن المطالب التي تطرحها عليهم، وإجبارهم على انتهاج «دبلوماسية التوسل» اليها، كما عبر وزير خارجية قطر ذات مرة، سواء من أجل إعطاء حماس الفرصة لتشكيل الحكومة وقبولها شريكا سياسيا، أو من أجل الضغط على إسرائيل لوقف اعتداءاتها على الشعب الفلسطيني. ولا مانع لدى واشنطن، بعد الاستجابة لمطالبها، من اطلاق وعود بشأن تسوية القضية الفلسطينية، تلك الوعود التي يتم الالتفاف حولها بعد ذلك.

ولا مانع لدى واشنطن كذلك من تفجير الوضع الطائفي في العراق، على نحو ما هو حاصل الآن، بما يسمح للدول العربية الادعاء بأن قواتها المرسلة الى العراق ذات مهمة «رسالية» تهدف الى المحافظة على وحدة العراق وعروبته.

* باحث بمجلة الديمقراطية بـ«الأهرام» القاهرة

تسويق خدام

حسين الشيخ*

■ حين تم اعلان ميثاق التحالف الوطني لتحرير سورية في شباط (فبراير) 1982 مع البعث العراقي وناصريين وشخصيات أخرى علمانية انطلاقا من بغداد، وكان هدفه في ذلك الحين اسقاط النظام في سورية، باغتت حينها جماعة الاخوان المسلمين تنظيمها بذلك من حيث أنها كانت تنفي وتنفي أي محادثات في هذا الاطار التحالفي كما أشار محمد جمال باروت في مقال لافت. وتم تبرير التحالف آنذاك بجواز التحالف مع كافر مساعد وهو هنا فصائل التحالف على كافر محارب وهو هنا السلطة.

وبعد مرور ما يقارب ربع قرن على ذلك التحالف ظهر إلى الوجود ما سمي بـ«جبهة الخلاص الوطني»، أيضا تحالف الاخوان المسلمون مع ممثل منشق عن حزب البعث السوري وشخصيات أخرى من مختلف المشارب، أيضا هدف هذه الجبهة هو اسقاط النظام في سورية، وكان لا بد من تبرير هذا التحالف الجديد، وخصوصا أن جماعة الاخوان المسلمين قد ارتبطت بتحالف آخر لم يجف حبر التوقيع عليه بعد، هو اعلان دمشق.

وسيتم التبرير، بتحميل المسؤولية لقوى المعارضة الأخرى والتي لم تتحرك في هذا الوقت الاستثنائي والحرج، وكان لا بد لجماعة الاخوان المسلمين بصفتها مركز الثقل في المعارضة السورية أن تتحرك لتدارك هذا النقص والتقصير. وسيتم تقديم البيانوني كرجل القرارات الصعبة، رجل المرحلة الاستثنائي، بالاضافة بالطبع إلى الاستعانة بالنص القرآني لتبرير قبول توبة الكافر.

ما الذي يحمله خدام إلى الاخوان المسلمين الذين لا ينفكون عن الاشارة إلى قوتهم ومركزيتهم في قوى المعارضة، عبد الحليم خدام الذي يعرف امكانياتهم تماما فقد عمل كنائب للرئيس السوري لفترة طويلة.

هذه الجماعة التي تتصور نفسها بأنها جزء حيوي وأساسي في التيار الاسلامي في سورية، ولذا فان أية انتخابات حرة ستجري سيحصلون بالتأكيد على الأكثرية كما حصل مؤخرا في فلسطين ومصر، اذن هم يحملون العدد والقوة والتواجد في الشارع السوري، وهم بالتأكيد الأكثر تنظيما بين كل فصائل المعارضة السورية، والفصيل الوحيد الذي يتمتع بديمقراطية داخلية كما أشار الطاهر ابراهيم في مقاله: لماذا البيانوني الذي نشر في موقع أخبار الشرق.

ولعلنا نستطيع ايجاز النقاط التي أوردها الاخوان المسلمون في تبرير انشاء جبهة الخلاص الوطني والتحالف مع خدام بالتالي:

ـ يسجل على المعارضة السورية أنها لم تستطع تنسيق حركتها (اتفاقا أو توافقا) مع حركة المعارضة اللبنانية ولا أن تستفيد من الظرف الهش الذي آل اليه أمر النظام ولا سيما بعد اغتيال الحريري (مقال زهير سالم المنشور في «النهار»).

ـ المعارضة السورية ظلت تدور في تكرارية الخطاب والمطالبات.

ـ اعلان دمشق لم يستتبع أي بعد سياسي على أرض الواقع ولأن البيانوني «موسوعة سياسية تضم صفحاتها تاريخ سورية الحافل وما حواه من أحداث عصفت خلال النصف الثاني من القرن العشرين» حسب الطاهر ابراهيم ولأنه وجد جماعة المعارضة في الداخل لم تتقدم خطوة نحو الأمام في تفعيل اعلان دمشق فبدأ بحثه عن اتجاه آخر دون أن ينفض يده نهائيا من جماعة اعلان دمشق (لاحظ انه لم ينفض يده نهائيا بعد).

ـ الاخوان المسلمون هي الجماعة الوحيدة التي بقيت متماسكة بعض الشيء رغم كل حملات القمع التي تعرضت لها، ورغم أنها تعرضت لانشقاق ولكنها كانت تعمل بكفاءة حتى في أشد الحالات استثنائية مما جعل الجماعة تتداول الرأي، مبتعدة عن حالة فرض الآراء ما مكنها من التعامل مع المستجدات بشكل يومي فلا يصدر بيان أو موقف قبل أن يعرض على مراجعه ويتم التداول بشأنه. وهذا ما لم يكن متوافرا لباقي فصائل المعارضة.

ـ لأن خدام يعرف بشكل وثيق القوة التي تتمتع بها الجماعة نتيجة عمله مع حافظ الأسد، ولأنه يعرف امكانيات فصائل المعارضة الأخرى المتواضعة.

ـ وبما أن الاخوان المسلمين هم مركز الثقل في المعارضة لذلك انحاز خدام اليهم فهم الجماعة الوحيدة المؤهلة للاطاحة بالنظام الحالي.

ولكن كيف حاول الاخوان المسلمون تسويق عبد الحليم؟ ان اعتراضات جوهرية مثل اعتراض رياض الترك بأن: «خدام شارك في جميع جرائم النظام ولم يتبرأ حتى الآن مما ارتكبه في عهد حافظ الأسد». ان مثل هذه الاعتراضات الجوهرية تصبح برأي زهير سالم في مقاله في جريدة «النهار» بأنها: «بعض الاعتراضات ذات الطابع الشخصي الذي لا يزال البعض يتمسكون بها بالنسبة لماضي عبد الحليم خدام ودوره في تركيبة النظام». عبد الحليم خدام الذي لم يمل من الدفاع عن النظام طيلة حوالي 40 سنة سيتم اختزالها بطريقة هزلية إلى أنها اعتراضات ذات طابع شخصي، لا ندري لربما كانت هناك ثارات شخصية بين شخصيات مثل رياض الترك وهيثم مناع وبين عبد الحليم خدام ونحن لا نعرف عنها شيئا.

وبما أن عبد الحليم خدام جاء تائبا توبة نصوحة فمن المروءة أن نرحب بمن تاب ونعفو عنه، وهنا يتم الاستشهاد بآية قرآنية للتدليل على رجاحة هذا الراي. ولا بد من التطرق إلى الملايين التي يملكها عبد الحليم خدام كمصدر محتمل للتمويل (وهنا ألا يبدو مشروعا التساؤل عن مصدر هذه الثروة الضخمة؟) ولكن يتم القفز عن ذلك بمنتهى اليسر والانتقال إلى التاكيد على أنه يمثل قوى من البعث والسلطة وله امتداد داخلي. رياض الترك تساءل حينها: «أين تحركه وأين امتداداته؟» ويبدو التساؤل محقا للغاية حتى نصل إلى ما يبدو أنه الأهم بأن خدام ارسل عام 2003 رسالة إلى البيانوني حسب تصريح الأخير لـ«رويترز» بأنه يفكر بمغادرة سورية ليلتحق بالمعارضة فان ذلك سيزيل الكثير من اشارات الاستفهام حسب تعبير الطاهر ابراهيم.

اذن الحق كل الحق على المعارضة بمختلف تياراتها في الداخل، فهي كانت غير قادرة على الفعل، الحق عليها لأنها تتعرض للقمع اليومي، كان لا بد أن تضحي بكل كوادرها لكي تنال الرضا والقبول، والحق على المعارضة لأنها لم تنسق مع قوى المعارضة اللبنانية والتي يتفضل أحد قادتها بدعوة الولايات المتحدة الأمريكية لغزو سورية. في حين أن كوادر الاخوان المسلمين المنظمين جيدا ينتظرون الفرصة السانحة لتحريك شوارع كل المدن السورية، وأعوان وأزلام عبد الحليم خدام يحضرون العدة للاستيلاء على الاذاعة السورية.

مركز الثقل في المعارضة السورية يتحد مع عبد الحليم خدام ناسج العلاقات الماهر، السياسي الذي لا تشوبه شائبة، والذي تربطه علاقات متينة مع قوى المعارضة اللبنانية، هم الذين سيحددون مستقبل سورية الديمقراطي القادم. ولا سيما حين نقرأ تصريح البيانوني لـ«رويترز»: «أن النظام السوري سينهار دون حماية دولية». و«لأن الحركات الأخرى مثل العلمانيين والقوميين قد فشلت فشلا ذريعا فلا بد للناس من أن يتطلعوا إلى حلول أخرى وهذا ما يفسر اتجاههم نحو الاسلاميين».

لا بد اذن من جبهة الخلاص الوطني، هذا الفارس القادم على فرس من نار ليخلص الناس من الظلم، ولا سيما أن الشعب السوري حسب رأي الطاهر ابراهيم: «ما زال يجهل الأسلوب الناجع لطرد نظام البعث من السلطة، ولكنه ما زال يتطلع إلى من يقوم بذلك».

لذلك سيتم اسداء النصح لقادة المعارضة السورية أن يتقاعدوا في جزر الباهاما ولا سيما أن التمويل متوفر بسخاء، ولعل أصغر بليونيرة في العالم ستتبرع لكل النساء السوريات الذين اعتقلوا برحلات إلى أوروبا للتسوق. وستكون الخاتمة حسب رأي الشيخ امام: حيجيبوا الديب من ديله، ويشبعوا كل جعان، ياسلام لام ياسلام.

*كاتب من سورية يقيم في هلسنكي